مسيرة الاصطلاح الطبي في الغرب

ترجمة الاستاذ / إدريس بن الحسن العلمي(*)

إن الممارس لعمل التعريب الذي ينظر ولو نظرة سريعة في تاريخ الاصطلاح الطبي الغربي لن يملك نفسه من إرسال صيحة المفاجأة كلما طالعته من خلال مسيرة هذا الاصطلاح صعوبة من الصعوبات أو مشكلة من المشاكل العويصة التي واجهها أو يواجهها تعريب العلوم اليوم. وسيشعر بكثير من العزاء عندما يرى نقل علوم الطب من اللغة اللاتينية الى اللغات الأوروبية الحديثة يلاقي من غلاة المتعصبين للغة اللاتينية، الذين لا يبغون عنها حولا، ما يلاقيه عمل التعريب اليوم من مقاومة ومناهضة من بعض أبناء لغة الضاد أنفسهم.

وسيجد كثيرا من المواساة عندما يلاحظ في ذلك التاريخ أن الاصطلاح الطبي الغربي عانى نفس المعاناة التي يعانيها الآن الاصطلاح الطبي العربي (والعلمي بصفة عامة) من آفات الترادف، والاشتراك، والدخيل، والالتباس، والابهام، وتشبث الفرد أو الإقليم - في تعصب - بمصطلحه مهما تبين عدم صلاحه، ووجود ما هو أفضل منه، الى غير ذلك من الآفات.

إن الإطلاع على هذه الدراسة لتاريخ الاصطلاح الطبي الفرنسي، التي قام بها عالمان هما (جان - شارل صورنيا) و(ألكسندر مانويلا): اللذان يعدان من أساطين الطب بفرنسا ومن رواد منهجية الاصطلاح الطبي والمعجمية الطبية في العالم، لخليق بأن يحل كل العقد النفسية الناشئة عن تخلف لغة الضاد في التعبير العلمي، وجدير بأن يخلص من مركب النقص اللغوي الذي مازال يتحكم في عقول الكثيرين من أبناء المغرب العربي على الأخص. فعسى أن نكون بترجمة هذه الدراسة إلى العربية قد وفقنا إلى حل البعض من هذه العقد وإلى تفكيك ذلك المركب. ولقد قمنا بترجمتها من اللغة الفرنسية إلى العربية نقلا عن موسوعة «تاريخ الطب والصيدلة وطب الأسنان والبيطرة» (المجلد الثامن) طبعة 1980 للشركة الفرنسية للنشر المهني والطبي والعلمي(**).

ويرجع الفضل في إمدادنا بالنص الفرنسي لهذه الدراسة إلى ولدنا الدكتور أمل العلمي حفظه الله وبارك في مشاريعه وأعماله. وقد أمدنا به ليكون فصلا من فصول كتابنا «مدخل لتعريب الطب».

(*) خبير سابق في مكتب تنسيق التعريب

(**) Histoire du language médical/par Jean Charles Sournia et A lexandre Manuila. p. 319 in "Histoire de la Médecine de la pharmacie de l'art dentaire et l'art vétérinaire". Tome 8 Collection dirigée par Jacques Poulet, Jean Charles Sournia et Marcel Martiny. Editeur: Société Française d'éditions professionnelles, Médicales et Scientifiques (1980).

تمهيد

« كثير من الأطباء كتبوا عبر القرون عن تاريخ فنهم وأساليبهم العلاجية وعن تاريخ من سبقوهم إلى فنهم لكنهم أهملوا لغتهم الاصطلاحية. والحالة أنه لا توجد أداة للتأمل والتدبر والعيار والمواصلة ضرورية بقدر ما هي اللغة، لأنها تحث الفكر، مثلما تكبحه، أو تحبسه. فعلماء الطبيعيات، والكيمياء، والإناسة (anthropologie)، قد اهتموا بأداة تعبيرهم. وقليل من فعل ذلك من الأطباء. ولذلك قل من سبقنا من الرواد الى ما نقوم به في هذا البحث من معالجة لرسم الخطوط الكبرى للغة الطبية.

فمن السهل الاستشهاد على أن تطور الطب عبر العصور لم يتأت بدون تطور لغته. فإنه لم يلاحظ قط أن ابتكارا علميا تم من غير أن يصحبه ابتكار لغوي.

وسنكون بطبيعة الحال مضطرين في هذا البحث إلى دراسة اللغة الطبية الفرنسية على الأخص مهما كانت معرفتنا للغات الأجنبية وتاريخها. ولا يمكننا أن نعالج من بين العلوم التي لا تحصى - مما أصبحت تتضمنه الدراسة الحديثة للغة ما - سوى علمين: الاصطلاح، والمعجمية (تاليف المعاجم). وعليه سنتحدث في القسم الأول من هذا البحث عن نمو المفردات الطبية ونتحدث في القسم الثاني عن المراحل التي قطعتها المعجمية لاسيما في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وأخيرا سنلم بالاهتمامات والتساؤلات التي تطرح نفسها على الأطباء اليوم.

نشأة المفردات الطبية الفرنسية

جميع فصول هذا التاريخ العام للطب تدل على أنه لا يمكن في أي مرحلة من مراحل تطوره أن يعزل عن سياقه الثقافي والتاريخي ولا عن المجتمع الذي يمارس فيه. ولا تستثنى من هذه القاعدة المفردات الطبية. فإن حياة ذات الإنسان تطرح من المشاكل العامية واليومية ما لايسعه معها منذ كان إلا أن يخصها باصطلاح. فيمكننا إذن القول بأن المفردات الطبية الشعبية كانت موجودة في اللغة الفرنسية قبل أن ينشئ الأطباء هيئتهم ثم علمهم. كما يمكننا القول بأن المفردات الطبية الفرنسية تندمج اندماجا وثيقا في تاريخ اللغة الفرنسية، وبالتالي ليس في الإمكان رسم حدود مضبوطة لحقل المفردات الطبية.

ففي « أنشودة رولان)، التي هي من معالم اللغة الفرنسية الأولى، نجد مفردات تشريحية: منها ما لم تتغير ألفاظه حتى اليوم، ومنها ما بقي مستعملا ولكن عند العامة، ومنها ما تغير معناه، ومنها ما اندثر، واحتاجت القرون اللاحقة الى الاستعاضة عنها بمصطلحات أخرى. بحيث لو اقتصرنا على الوصف التشريحي لجروح فرسان (شارلمان) لوجدنا أنفسنا أمام أربع مغامرات ممكنة للمصطلح الواحد: إما استمراره عبر القرون، وإما تغير استعماله أو مدلوله، وإما موته المبكر، وإما تأخر ولادته.

فالصعوبة الأولى تأتي من كون الطبيب لا يمكنه نسيان المصطلحات العامية المتصلة بالجسم أو المرض المستعملة في الأوساط الشعبية التي يعالجها. فالمفردات الطبية لا تنحصر فيما عند الأطباء من مفردات. من أول الزمان توجد لجميع الحرف لغات تناسب ثقافات من أنماط مختلفة. فالمرأة من العامة لا تستعمل نفس اللفظ الذي تستعمله القابلة المولدة، التي لها مفردات تختلف عن مفردات الجزار، وهو

يتكلم على نحو مغاير لما يتكلم به المحامي، وهذا الأخير لفظه يقل دقة عن لفظ الطبيب. وهكذا كان الحال دائما في جميع المجتمعات. ولم تغير وسائل الإعلام الحديثة هذه الثابتة. فاللغة الطبية المتداولة، في حقبة ما، تضم إذن ألفاظا شعبية، وألفاظا مستعملة من لدن أوساط محدودة.

بيد أن الطبيب، يوم يحتاج إلى صورة جديدة لوصف مرض ما، يعمد إلى صنع لفظ جديد. فإذا ما انتشر هذا اللفظ فإنه ينتقل من الكلام الشفوي إلى الكتابي ويؤمئذ يعلن على أنه لفظ جديد. وهذه صعوبة ثانية في سبيل دراسة المفردات الطبية، ناشئة عن التفاوت الحاصل ما بين استعمال لفظ وبين بروزه بروزا تاريخيا: وعليه فتاريخ ولادته يكون دائما غير مضبوط.

ثم قد يبور هذا اللفظ إذا ما مات صانعه أو إذا لم يعد العمل جاريا بالإطار الذي نشأ فيه سواء كان هذا الإطار فلسفة، أو مذهبا خلقيا، أو علما لتصنيف الأمراض، أو مفهوما علميا. فهو يقل استعماله شيئا فشيئا. فعندما تخرج نظرية (فرود) و(صيلي) من الطب فإن لفظ «العقد النفسية» (Les complexes) ولفظ "Stress" سيبقيان بعدهما قليلا ويكتبان بين هلالين مزدوجين ثم ينسيان. فالألفاظ لها حياة، وتاريخ موتها مشكل عويص، مثل تاريخ ولادتها. بيد أنها قد تظهر، فيما بعد، مكللة بهالة غريبة من الجدة وبمعنى جديد أيضا مثلما هو الحال مع لفظ "relaxation" (الاسترخاء).

والصعوبة الرابعة في دراسة المفردات تأتي من تغيير معانيها. فمثلا لفظ "Fievre" (الحمى) نجد، ونحن في نهاية القرن العشرين، مشقة كبيرة في التخلص من مدلوله الحالي الذي يعني ارتفاعا في الحرارة الباطنية مقيسا بمحرار مدرج الترقيم. فهذا المعنى لم يكن يتصور منذ بضعة قرون. وهذا المثل يؤكد مرة أخرى أن اللفظ لا يفهم إلا في سياق عصره الاجتماعي واللغوي والثقافي والمهني (ولا نجرؤ على القول و«العلمي») : فالإقدام على ترجمة نص طبي يرجع عهده إلى القرون الماضية، ودون الاطلاع الكامل على طب عصره، ولغته، يعد مغامرة خطيرة، وذلك هو السبب في أخطاء الأطباء القليلي الإطلاع على التاريخ، وفي أخطاء المؤرخين من غير الأطباء.

ولا ينبغي لعرض هذه الصعوبات المنهجية أن يؤخر - أكثر مما فعلناه - ذكر التسلسل التاريخي للمفردات الطبية. ولا يسوغ لنا في إطار تاريخ عام أن ندخل في تفاصيل كل مدرسة علمية، وحياة كل لفظ. ولذلك سنرسم مراحل هذا التطور في خطوط كبرى.

في العصور الوسطى، كان أطباء الجامعات يدرسون، ويناقشون رسميا، باللغة اللاتينية، مع أنهم كانوا يتكلمون باللغة الفرنسية مع مرضاهم، ومع أصحاب مهن صحية، لا تقل نفعا للعموم عن مهنتهم، مثل الحلاقين، والجراحين، والقابلات المولدات، والعطارين، والعشابين، والصيادلة، ولا يتكلمون معهم إلا باللغة الفرنسية وحدها. ولم تبق لنا المخطوطات من مفردات هذا الكلام سوى آثار قليلة تتمثل في الترجمات الفرنسية لمؤلفات (هنري دو موندوفيل) ثم (كي دي شولياك) في الجراحة.

قد كانت إذن مفردات تقنية موجودة، عندما ساعدت ظاهرة الطباعة، مع انخفاض ثمن الورق، على نشر الكتاب في القرن السادس عشر نشرا هائلا. فمن هذه الظاهرة يبدأ تاريخ اللغة الطبية الفرنسية. وفي نهاية القرن كان عدد الكتب الفرنسية المطبوعة يفوق بكثير عدد الكتب اللاتينية. وكانت مفردات اللغة الطبية الفرنسية في البداية جراحية. ولم يقبل الأطباء على اللغة الفرنسية إلا فيما بعد، وبشيء من الخجل، إذ كانوا يرون أن عليهم بصفتهم علماء جامعيين أن يتكلموا باللاتينية. وكانوا يترددون في الكتابة باللغة الفرنسية، آنفين من الانحدار إلى مستوى الجهال الذين يكتبون بها ولا يستطيعون التعبير باللغة اللاتينية: وهذه كانت حالة الجراحين. فإن التقليديين كانوا يعتقدون أن طبا جادا لا يمكن أن يكون إلا لاتينيا.

من الجامعة أتت المعارضة الشديدة لطبع الكتب الطبية بالفرنسية. ولنا تعليلات عديدة لهذه المقاومة. فقبل كل شيء، كانت فرنسة الطب تؤذن بنهاية عهد، وببداية عهد جديد. فكانت جديرة بأن تقاوم، لأن محاربة اللغة الفرنسية كانت تحمي مصالح طائفة، واستمرار ثقافة. وهكذا هيمنت المعارضة بين العقليتين على حياة كليات الطب، بمظاهرات هائلة وبتصرفات ماكرة، مدة ثلاثة قرون.

في خضم هذا الجدل كان موقف الكنيسة يختلف حسب الحقب، وحسب الأساقفة. فمبدئيا، كان عليها أن أن تشاطر الجامعة موقفها، ولكنها راعت هيجان العقول الذي أحدثته دعايات المبشرين من دعاة التجديد باللغة الدارجة: فما كان يسعها إلا أن تستجيب على غرارهم للتجديد لكي تكون ذات فعالية. فلم يتمكن الأطباء التقليديون من الإعتماد على مساندة الكنيسة.

وفي النهاية، كان للملوك تأثير حاسم على انتصار اللغة الفرنسية. فالملكية بإنشائها (كوليج دي فرانس) (College de France) لمضاهاة (لاصوربون La Sorbonne) و كوليج جراحي سانت ـ كوم (College des Chirugiens de Saint-come) في ميدان آخر، وبتوحيدها اللغة القضائية، في مجموع المملكة بمرسوم (فيلير ـ كوطوري Villers Cotteret (1539) وبتشجيعها المؤلفين، والطابعين، باللغة الفرنسية، كانت بذلك تدعم معارضتها للامتيازات الكنيسية، والجامعية، وللخصائص الأقاليمية، أو المهنية. فبينما كانت الأمبراطورية والكنيسة تتكلمان باللاتينية لأسباب تختلف فيها إحداهما عن الأخرى كانت سلطة اللغة الفرنسية وذيوعها يشهدان بوحدة مملكة فرنسا وقوة أميرها.

فالمؤلفون باللغة الفرنسية ـ كما كانوا يقولون هم أنفسهم ـ كانت لهم حظوة، مع أن لغتهم كانت تنقصها المصطلحات الصالحة للتشريح، وللصيدلة، ولعلم النبات. فكان فكرهم، وحركاتهم، وتقنياتهم تعاني كثيرا من هذا النقص في التعبير. وهذا ما حداهم لابتكار ألفاظهم.

من القرن السادس عشر بدأ اصطلاحنا الطبي الناتج عن رغبة الأطباء في أن يعبروا ويترجموا بمصطلحات فرنسية جديدة، عما كانوا يتعلمونه من علم التشريح وعما كانوا يريدون تعليمه من مبادئ الصيدلة الجديدة. إن اللغة الطبية قد نشأت من

ضرورة نشر عرفان، لا من ضرورة فرض سلطان.

فالمؤلفون، الذين كانوا مضطرين إلى أن يصنعوا لأنفسهم طريقة للتعبير، استعملوا وسائل عديدة ليقولوا بالفرنسية ما كان يقال زمنا طويلا باللاتينية، أو ما لم يسبق قوله قط.

وأبسط هذه الوسائل طبعا هو إدماج المصطلحات الدارجة في كلامهم فالألفاظ العادية مثل الساعد، والساق، والفخذ، والشهيق، والغدة، والدمل، والعصب، والمبزلة، والمبزغ إلخ.. دخلت في جملة مفردات الجامعيين. فهذا الأسلوب، الذي اتبع في إدماج مصطلحات دارجة في اصطلاح قد ضم مصطلحات علمية غميسة، في القرون اللاحقة، يلاحظ في شتى العلوم، ويتصف بجسامة ضخمة في علم الطب بالخصوص.

وإلى هذه النواة الجوهرية ـ التي هي مفردات اللغة الطبية الفرنسية المشتقة من اللاتينية السفلى، ومن اللغة السلتية، ومن مختلف اللهجات الجرمانية ـ أضافت تجديدات ذلك العصر مصطلحات عديدة مشتقة من اللاتينية. فإلى ذلك العهد يرجع تاريخ ألفاظ متداولة اليوم مثل:

Plexusو Relaxationو Processus و Revulsionو Serum و Vesicatoireو Virusو Sacrum، إلخ...

وفي كثير من الأحيان لا تكفي اللاتينية ويستنجد باللغة الإغريقية بواسطة اللاتينية أو بدونها. تلك اللاتينية التي استعارت منها ألفاظا مثل: Hygieneو nephretiqueو Pancreasو Paraplegieو Phlegmonو Thyroide الخ... وعندما لا يوجد اللفظ كان يصاغ من مركبات لاتينية أو إغريقية. ومنذ القرن السادس ظهرت ألفاظ خلاسية إغريقية ـ لاتينية أثارت حفيظة اللغويين المتشددين وتكاثرت رغم أنفهم ألفاظ من أمثال: Coecostomie و Ovariectomie إلخ.. وأخيرا احتلت الكتب الطبية العربية مكانة كبيرة في تدريس كليات القرون الوسطى بحيث رغم ترجمتها إلى اللاتينية أعطت كلمات متداولة مثل "alcool"و "Sirop"... وكذلك "Bézoard" التي استعارتها اللغة العربية من اللغة الفارسية.

فالنهضة قد أثْرَتْ إذن اللغة التقنية الطبية إثراء عظيما. وهذا التطور الذي انتقده فوجيلاس (Vau-gelas) سار بدون التواء ولا رجعة. وبعث هذا التطور عناية كبيرة بالطب في مختلف الأوساط. فقد اهتمت به الأوساط البورجوازية الباريسية، والاقليمية، والعلماء والمتحذلقون، والمقربون الى الأمراء، والنبلاء البدويون الأمناء على صحة فلاحيهم. وتشهد على هذه العناية المكانة الكبيرة التي احتلها الطب في المراسلات، وفي النقد والهجاء، والتقويمات الفلكية، والمقالات، والمعاجم، والنثر، والشعر بسونياته (سان كوم ـ Saint-Come) وكان مرتادو الصالونات يتعرفون فيما بينهم على مستحضرات تشريحية. وفجأة كانت، تظهر في كتابات (مدام دي سيفينيي) أو على لسان (سكا ناريل) مصطلحات كانت تعتبر، عقودا من السنين من قبل، مفردات علمية صرفة.

هذه «المباهاة» بين علية القوم بالطب (إذ لم يكن بلغ حد تعميمه بين الناس بعد) لم يكن يستسيغها ذوق الجامعات عندما انتشرت ابتداء من سنة 1965 (جريدة العلماء Le Journal des Savants) ثم «جرائد الطب».

وجاء القرن الثامن عشر فلم يكن له بد من استحثاث هذه الحركة. ثم مضى زمن طويل على بعض الأطباء وهم يتحسرون على هجر اللاتينية، مع حنين إلى الماضي، وإلى ثقافته الطبية الأدبية. ولكن استمرت مع الأيام في التكاثر، المراسلات باللغة الفرنسية بين الأطباء. وكانوا ينشرون بها رسائلهم. وكانت المناقشات في الأكاديميات تجري باللغة الفرنسية ثم بعد لأي كتبت الموسوعة بهذه اللغة.

وطوال القرن، كان العلماء يتحدثون عن صحة الكلمات المولدة. فإذا كان بعضهم يزعمون أن المفردات الفرنسية كافية للتعبير عن كل شيء، فجلهم كانوا يرون أن الكلمات القديمة مشحونة بمفاهيم خارجة عن العلم الجديد، بحيث لا يمكن الاحتفاظ بها، وان الحاجة ماسة الى مصطلحات مجردة غير موجودة، إلى مصطلحات جديدة، تساعد جدتها على فهمها بمعنى واحد، في جميع الأقطار.

وأعطى الموسوعيان (لافوازيي وصوصور) لنظريتهما وللأجسام التي كانا يكتشفانها، وللالات التي كانا يصنعانها، أسماء لم تكن مستعملة من قبل. وعلى غرار (لينني، Linne) تعمّمت التصنيفات، فشملت مختلف أصناف فصائل الطبيعة، وامتدت الى الطب. وكان أول تصنيف معقول للأمراض - على ما يبدو - هو تصنيف (مون بيلييران بواصي دي صوفاج Mont-Pelliérain Boissier de Sauvages) في سنة 1759 ثم أعقبته عدة تصنيفات أخرى.

وأعاد الطب الاعتبار لبعض المصطلحات الشعبية القديمة، التي كان القرن السابع عشر قد نحّاها. فتجددت بالضبط مدلولات مصطلحات التشريح، وانتفت نهائيا ألفاظ أخرى وبصفة عامة استنجدت الألفاظ المولدة الجديدة بالجذور الإغريقية. وفي نهاية النظام القديم، كانت جميع كليات الطب الفرنسية تدرس باللغة الفرنسية، وينشر أساتذتها بالفرنسية جرائدهم، وكتبهم، ومذكرات جمعياتهم العلمية. وكانت لديهم وفرة هائلة من المفردات، يرجع عهد بعضها الى غابر الأزمان، وبعضها الآخر الى بضع سنين. ولم يكن تاريخ الطب بفرنسا هو نفسه في سائر أقطار أوروبا. فلئن كانت فرنسا سباقة إلى الإنتقال من اللاتينية، اللغة الميتة، إلى لغة شعبية جديدة كل الجدة، فقد تلتها عن كثب، إيطاليا، حيث بدأ منذ نهاية القرن الخامس عشر إصدار مطبوعات الطب باللغة الايطالية في (بادو Padoue وفلورانس FLorence. وفي هاتين الكليتين، وكذلك في (بولوني Bologne) أخذ التدريس يتسع شيئا فشيئا، باللغة الايطالية، في حلتها التوسكانية.

وكانت انجلترا بطيئة نوعا ما، حيث ظهرت دورية (Philosophical Transactions) مثل (جريدة العلماء Le Journal des Savants) بباريس في سنة 1665؛ ولاريب في أن الطب بانجلترا بقي وفيا للاتينية أكثر منه في فرنسا، بسبب انتشار اللغة الفرنسة بأوروبا أكثر من انتشار الانجليزية فيها. وألمانيا هي التي كانت أكثر تعلقا بالقرون الوسطى. فحتى قبيل الحرب العالمية الثانية كانت أطروحات الطب بألمانيا تناقش بعضها باللغة اللاتينية، هذا مع أن (برونشويك Brunsch-wig) نشر باللغة الالمانية دراسات تشريحية، مرتكزة على الاعمال التشريحية المنجزة خلال حرب سنة

1490 وذلك زمنا طويلا قبل نشر (باري Pare) أعماله بالفرنسية، ومع أن علومها كانت في القرن الثامن عشر تفخر بعلماء ألمانيين من كبار علماء العالم، ومع أن الطب ما كان له أن يكون على ما هو عليه اليوم لو لم يحظ في القرن التاسع عشر بالعالمين الألمانيين (فير شوف وكوش Virchow et Koch)؛ ومع أن إنتاج ألمانيا الطبي باللغة الالمانية أصبح عظيما من حيث قيمته ووفرته، فمع هذا كله بقيت ألمانيا أشد محافظة على اللغة اللاتينية.

فلا ينبغي لنا أن نستهين بقدر هذه المصارعة بين اللاتينية والفرنسية كما لو كانت شيئا تافها، اذ لا يجدر بنا أن نعتبرها مجرد انتقال في التعبير من طريقة الى أخرى، بل هي طفرة من ثقافة الى ثقافة أخرى، ومن علم إلى علم آخر، ولم ينجز أي شعب هذا الإنفصام بسهولة. فلنفكر في معاصرينا من أطباء الأقطار النامية المضطرين إلى ازدواجية ثقافية. فهم يدرسون ويعملون بلغة دولية قويمة ثم هم يقومون بعلاجاتهم متحدثين بلغة عامية غير دقيقة. فلا أحد يعرف كيف يساعدهم في هذه الوضعية العسيرة من الناحية الثقافية والقليلة الجدوى من الناحية العلمية.

المعاجم في خدمة العقل

إن إعادة استعمال الترتيب الألفبائي، لجمع المعارف، بطريقة تعليمية وسهلة القراءة، انتشرت منذ القرون الوسطى. وشارك فيها الطب. وطبعت مؤلفات من هذا النوع منذ القرن السادس عشر.

المعاجم ميادين دراسة نفيسة لرسم تاريخ لغة ما، لكن ينبغي توضيح قيمتها الوثائقية. فمحتواها يختلف حسب الأهداف التي نصبها مؤلفوها. فبعضهم يحصرون عملهم في فرع من فروع الطب، كعلم الحمية الغذائية، أو المداواة بالنباتات الطبية، او الفسلجة (علم وظائف (الأعضاء) أو حتى النظم الشعري للمصطلحات الطبية، وبعضهم يريدون الإحاطة بعلم الطب كله. والى جانب المعاجم الصغيرة نرى مؤلفات ضخمة ليست تكرارا لها بل هي لها تتمة وتكملة.

من دون أن نقصد تكرار كلامنا على مفهوم «حياة لفظ» نذكر بأن اللفظ كان يتداول مشافهة زمنا طويلا قبل ظهوره في المعجم الذي هو دائما مسبوق باستعماله: وعلى العكس تتضمن المعاجم مصطلحات مهجورة وذلك ليتمكن من فهم معناها القارئ الذي يعثر عليها في كتاب قديم: ولأن مؤلف المعجم ليس بالضرورة على علم بالتطور الحاصل يوميا في كل فرع من فروع الطب. فالمعجم، بسبب ثغراته ومصطلحاته الزائدة، هو وثيقة تاريخية ينبغي تقدير مالها من قيمة وحدود. إن إنتاج المعاجم المطبوعة خلال الخمسة قرون الماضية قد تتبع عن كثب اتساع المعارف الطبية، وتعدد المذاهب المتعاقبة، وتضخم إصدار المطبوعات العلمية او التعميمية. لكن تاريخنا للمعاجم لن يتناول منها سوى الطبية المحضة.

فلئن كان القرن السادس عشر لا يعطينا منها سوى بضعة عناوين فإن القائمة التي يزودنا بها القرن السابع عشر اشمل وأوفر. فان (كيمادا Quemada) يذكر تسعة معاجم محررة باللغة الفرنسية على رأسها معجم (طوماس بيرني Thomas Burnet) في

سنة 1691 بمدينة ليون). وينبغي ان نضيف اليها نحو خمسة عشر معجما طبيا باللغة اللاتينية يتضمن كثير منها جداول ثنائية اللغة مفيدة لنا كثيرا.

وكانت معاجم القرن الثامن عشر يهيمن عليها المعجم الانجليزي الذي ألفه (جامس James) ونشر بالفرنسية في سنة 1746 مترجما بقلم (ديدورو وايدوس وطوسان Diderot, Eidous et Toussaint) ويبين (ديدورو) مقاصد المؤلف التي هي: اشاعةالمعارف الضرورية وتصحيح الممارسة... وفي ذلك الحين اصطدم (جامس) بصعوبة لم تزدها الأيام إلا ضخامة واستفحالا وهي « ذكر مختلف الأسماء التي أطلقت على نفس الشيء وبيان الفرق الحاصل بين عدة أشياء مختلفة أطلق عليها نفس الإسم. ولم يهمل المعجم أي فرع من فروع الطب، لا التشريح، ولا التشخيص، ولا التحسب (Pronostics)، ولا المعالجة بالصيدلية، أو بالجراحة. وعلاوة على ذلك أسهم إسهاما كبيرا في تاريخ الطب، فقد ذكر عند شرحه للأمراض أسماء الشخصيات البارزة التي ماتت مصابة بها، ثم تناول ترجمة حياة الأطباء الجديرين بالخلود.

وأخيرا لن نغفل اشتماله على ستين صورة جيدة النوع زينت مجلداته الستة الضخمة من الحجم الكبير. ولم يحذ حذوه فيما بعد إلا القليل من المعاجم نظرا لغلاء تكلفته.

وإمتاز القرن التاسع عشر بازدهار التاليف المعجمي إزدهارا عظيما. وأول المؤلفات ظهورا كان معجم (كابيرون Capuron) في سنة 1806، ويمكننا القول بأن خلفه باق حتى اليوم، إذ أن هذه الطبعة الأولى التي كانت بين بين، أعقبتها طبعة (نيستين Nysten) المتأصل من (ليج Liege) وصديق وتلميذ (بيشاط Bighat)، ثم تتالت الطبعات طوال القرن التاسع عشر.

وصدرت الطبعة الثانية لنفس المعجم في سنة 1865 بإسم (ليتري وروبان Littré et Robin) وهي، باحتوائها ألفا ستمائة صفحة، كانت أضخم من الأولى بكثير. فقد أرادت أن تكون موسوعة، وأن تقدم صورة صحيحة وكاملة لعلم الطب، بما فيه « العناية بالنظافة والصحة العمومية التي يزداد اهتمام الرأي العام بها ». وكان (روبان Robin) مادي المذهب (مثل « ليتري Littré) وكانت له قضايا مع العدالة لأن تعريفاته الأصيلة للروح وللضمير كانت قمينة بأن « تفسد الشباب ».

ومن سنة 1812 إلى سنة 1822 (استمر اصدار معجم للطب بعنوان Dictionnaire de Médecine كانت تصدره « شركة أطباء Société de Médecins منهم حسب الترتيب الألفبائي (اديلون وألار Adelon et Alard) يتبعهما (بايل Bayle) و(لائينيك Laennec) و (لاري Larrey) و(بينيل Pinel)... وابتداء من الطبعة الثانية 1833 أضيفت أبواب جديدة، منها باب للكتبانية (الببليوغرافية)، ومنها على الأخص باب إحصائيات طبية، وهو فرع حديث النشوء. خطط المعجم في سنة 1812 لكي يشمل عشرين مجلدا فاشتمل في الواقع على ستين.

ثم ظهر في سنة 1864 المجلد الأول من (معجم جديد للطب والجراحة العملية - Nouveau Dic-tionnaire de Medecinee et de Chirurgie Pratique) بقلم

ستة وثلاثين محررا مديرهم كان (جاكود Jacoud) وكان المعجم ينفي كونه موسوعيا، ويثبت قصده أن يكون « عمليا ».

وفي نفس السنة، سنة 1864 ظهر من « معجم موسوعي للعلوم الطبية » Dictiooaire Encyclopédique des Sciences Médicales المجلد الأول بقلم مائة وتسعة وسبعين محررا منهم (باستور Pasteur) و(ليتري Lit-tré). ولما كان المدير هو (أ. ديشمبر A.Dechambre) فقد عرف بهذا الاسم ذلك العمل الضخم، المتكون من مائة جزء، والحاوي مجموع علم الطب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وفي مقدمته الطويلة يسرد (ديشمبر Dechambre) جميع العلوم التي أصبحت لازمة للطب وهي: الكمياء (التي استتبعت تفصيلا طويلا)، والفيزياء، والتشريح، والفسلجة، والتاريخ الطبيعي الطبي، حيث يحتل علم النبات مكانا كبيرا، والطبابة Thérapeutique والطريقة التجريبية (مع التنويه بكلود برنار Claude Bernard)، وعلم الصحة، والطب الشرعي، والجغرافية الطبية، والاحصائيات التي عزز ذكرها بهذه الجملة: « لعل دور الطبيب الاجتماعي لا يظهر أكثر ولا أكبر في أي مكان ».

ولم تنته ثورة الطب بمعجم (دشمير)، لأن علم الجراثيم وعلم الاشعاعيات أو « الرديلجة » (Radiologie) لم يولدا حتى نهاية القرن. لكن لم يجرؤ أحد على استئناف الجهد العظيم المبذول في هذا العمل الذي بلغ ذروة المعجمية الطبية الفرنسية واستقر فيها طوال مائة سنة ولم يكن يفوق المعجمية الطبية الفرنسية في وفرتها وتنوعها، أي معجمية في أي قطر.

اهتمامات ومجهودات معاصرة

في نهاية قرننا العشرين يمكن الإتيان بوصف مؤقت للغة الطبية. قد إتسع نطاق المفردات خصوصا منذ خمسين سنة إتساعا عظيما لعدة أسباب، فالأطباء والباحثون ارتادوا ميادين جديدة، وجددوا القديمة: مثل علم الأحياء الجزيئي، وعلم الوراثيات، والطب الفضائي، والطب النووي، وعلم المناعة، والإحصائيات الطبية والمعلوماتية، وعلم الألرجة (الحساسية)، وعلم الهرمونات، وكمياء الدماغ الخ... وكان للتدويل دور في الإكثار من مناسبات الكلام والكتابة، في المؤتمرات، والندوات، والمناظرات، والمجالس، والإجتماعات وهي مما يتلهف الأطباء عليه. وأعقب تراكم العرفان تقسيمه. فانقسمت الفروع الكبرى للطب إلى فريعات اختصاصية وكانت لكل فرد حائز على قسط صغير من العلم نزعة، في برجه، إلى إحداث مفرداته الخاصة.

ومن هذا الشتات الذي أصاب الطب، مضافا إلى إثرائه العلمي، وتوسعه الكوكبي، نشأ خلط كبير في لغته، وبالإمكان جرد قائمة بأمراضه الكبرى.

فاللهجة الطبية الفرنسية تعاني قبل كل شيء تهافتا باطنيا سبق لنا أن شرحنا بعض أصوله التاريخية. فإننا (يعني الفرنسيين) خلطنا العامي بالعلمي، ولأن الكلمات دخلت في الاستعمال على فترات من حقب مختلفة. فماله صلة بالقلب له « Cardiaque » مع أن لفظ « Cardia » هو الملتقى البلعومي ـ المعدي (la jonction oeso-gastrique)، ثم من أصل اشتقاقي واحد نكتب « Colère » (غضب)

و« Cholèra » (هيضة)، و« mélancolie » (سوداوية، كآبة مبهمة) و« choledoque » (صفراوي جامعي)، و« Phrénique » (حجابي) و« frénésie » (هيجان جنوني). وهنا ينبغي أن نحترز من اعتبار هذه الشذوذات والمخالفات المتراكمة مجرد نزوات في الكتابة، أو رسابات تاريخية، لا تمثل سوى ظواهر سطحية لا شأن لها في الواقع. فهذا الإعتبار خطأ، لأنها تعكس تذبذبات، وتناقضات حقيقية، يتصف بها الطب الذي يسعى جاهدا في الاستقامة والسداد.

إن آفة الترادف هي المشكلة الكبرى لعلم دائم الحركة مثل الطب. ولذلك تعليلات كثيرة فالمرض حين يكتشفه في نفس الوقت، أو على بضع سنين من التفاوت، علماء متباعدون بعضهم عن بعض، يكون مصدرا لتعدد التعريفات بعدد العلماء المكتشفين الذين يعرفه كل منهم تعريفا مختفا. فالعالم المرضجي التشريحي يعرفه بمميزاته المرضجية التشريحية. والعالم السريري يعرفه حسب أكبر أعراضه السريرية، والعالم الرديلجي يعرفه حسب رسمه التصويري. هذه التعريفات ليست مترادفة كل الترادف بما أنها تترجم نظرة المكتشف الخاصة.

وبهذا الصدد أرسل صيحة إنذار لفيف من خبراء أقطار، جمعهم بأمستردام في سنة 1967، مجلس أوروبا، وذلك بقوله: إن المخابرة في الطب صارت تزداد تهافتا يوما عن يوم، لأن المؤلفين والمعلمين يسمون نفس المفهوم بأسماء مختلفة، تكون في غالب الأحيان غير مألوفة من القارىء المتوسط، أو غير صحيحة، أو مهجورة، فهي بذلك ولغير ذلك من الأسباب تخلق البلبلة).

وهناك آفة أخرى أحدث عهدا، نشأت في القرن التاسع عشر، تتمثل في تسمية عضو تشريحي أو أحد الأعراض أو مجموعة أعراض باسم الشخص الذي كان أول من وصفه أو يعتبر أول واصف له فاكتظت اللغة بأسماء الأعلام التي تختلف من قطر لقطر. فمرض « كراف » (Maladie de Graves) في انجلترا يسمى مرض « باسيدو » (Maladie de Base-dow) في فرنسا وألمانيا، وقد تختلف التسمية حتى من مدينة لمدينة. وآخر آفة نذكرها للغة الطبية في هذا العصر هي الإقتراضات الأجنبية أي (الدخيل) وهي ظاهرة ثابتة في تاريخ اللغات. فعندما تدخل عادة، أو شيء أو تقنية، أو فكرة، من قطر لآخر، تصطحب غالبا إسمها الأجنبي الذي يبقى ما بقي الشيء ثم ينقرض بانقراضه أو يترجم لمصطلح قومي وذلك كله عرفته لغة الطب.

فلئن كان اصطلاح الأشعة السينية (rayons x) تمت صياغته باللغة الفرنسية فلم يكن الشأن كذلك مع علم مرض السل الذي أدخل إلى فرنسا تصورات (رانك Ranke) لعلم تصنيف الأمراض و« عقده » Complexes التشريحية المرضجية فلفظ (Complexes) قد تفرنس قبل ان تستورد نظرية (فرود Freud) في التحليل النفسي. وعلى إثر لفظ « العقد Complexes » دخلت الألفاظ « Gestalt » (نظرية الشكل) و« Ego » (الأنا، الذات) و« libido » (الشبق): وهذان المثالان يصوران وفاء الأطباء الألمان المستديم للغة اللاتينية، بحيث اللفظ اللاتيني يواتيهم بسهولة.

وبعد سنة 1945 ثقل وزن العلم المعبر عنه باللغة الأنجليزية السكسونية، وتميز تاريخ الاصطلاح الفرنسي الحديث في الطب بوفرة اقتراضاته

(استعاراته) من اللغة الإنجليزية. فخلال ثلاثة عقود من السنين بلغ عددها المئات، ولم ينج أي علم من الزحف الدخيل. وتفاوتت حياة هذه الألفاظ الدخيلة فمنها من لم يعمر سوى بضع سنين. ومنها ما هو مشرف على الموت ثم منها ما هو حي بكل قوة. ليس الاقتراض طريقة صالحة لإثراء لغة علمية. وهذه التقنية اللغوية تثير ردود فعل من الاستنكار.، ليس التطور في اللغة الطبية الحديثة إذن خاليا من عيوب الترادف، والتسمية بالأعلام، والدخيل من الألفاظ، وهي عيوب تضر بدقتها العلمية. وهذا على كل حال يدل على حيوية العلم التي تفرغ هذه اللغة جهدها فيه، كما يدل على تقلباته، وقدرته على التجدد، وعلى صبغته الدولية، وسنرى فيما بقي من هذا البحث أن الأطباء وعوا ما لهذه الحركات السريعة غير المنسقة من محاسن ومساوىء ولم يفت المعجمية الحديثة تسجيل هذا التطور، وهي نفسها تغيرت مع أن انتاجها في هذا القرن لا يعادل في كميته انتاج القرن السابق.

ففي سنة 1900 نشر (م. كارني وف. ديلامار) معجما لمصطلحات الطب التقنية Dictionnaire des termes techniques de Médecine فاز بإقبال عظيم، واضطرت شهرته مؤلفيه إلى إعادة طبعه طبعات سريعة، وهي ظاهرة نادرة جدا في تاريخ المعجمية. وما زالت طبعته التاسعة عشر (1972) تحمل إسم أحد من عقب أحد مؤلفيه الأولين في سنة 1900.

إن هذا الاستمرار الطويل في المظهر، وفي المحتوى المتجدد بلا انقطاع يجعل من معجم (Garnier-Delamare) وثيقة فريدة من نوعها من حيث الإتساق والإنسجام في تاريخ اللغة الطبية طوال ثلاثة أرباع القرن مما أثار فضول الباحثين وحدا: (ي. غازي Y. Ghazi) ان يتخذه موضوع أطروحته في السوربون (سنة 1976) بجرد دقيق لمحتوى طبعاته التسعة عشر. ولن يمكننا أن نحلل هذه الأطروحة بالتفصيل ولا أن نتتبع معه من خلال الأربعة آلاف والثمانمائة مصطلح التي يرجع عهدها إلى سنة 1900 التي بلغت تسعة عشر ألف مصطلح في سنة 1972 نقول لن يمكننا أن نحلل ولا أن نتتبع فعليا ميلاد ونمو فروع علمية جديدة مثل الرديلجة (Radiologie)، أو علم المناعة. ولا أن نرقب ظهور مصطلحات جديدة. وفيما يخص هذه النقطة الأخيرة نلاحظ أن في لغتنا الطبية الحالية 11٪ من الألفاظ يرجع عهدها إلى القرن السادس عشر: 26٪ إلى القرن التاسع عشر، و42٪ إلى القرن العشرين. وتدل هذه الأطروحة إلى أي مدى يمكن لتاريخ الطب أن يتألف من تاريخ لغته.

وكان أكثر المعاجم طموحا (معجم الطب لفلاماريون Dictionnaire de Médecine Flammarion) المطبوع في سنة 1975 بإشراف (ج. هامبرجي J. Hamburger). فهو بمداخله العشرين ألفاً، وبذيله الإنجليزي الفرنسي، له صبغة علمية أقوى من المعجم السابق الذكر، وهو معد خصيصا للأطباء.

وكان أضخم معجم في هذا القرن بلا نزاع هو (المعجم الفرنسي للطب وعلم الأحياء: Dictiooaire Français de Médecine et de Biologie) المحرر بإدارة A. Manuila وL. Manuila و M. Nicole وH. Lambert. ظهر الجزء الأول منه في سنة 1970 وشارك في إعداده مائة وثلاثة وخمسون معاونا ومائة وأحد عشر مستشارا لتحرير مداخله المائة وخمسين ألفا: وكل مصطلح فيه يشفع تحديده بشروح وتعاليق تاريخية أو

تصنيفية. ويضم الجزء الرابع منه عدة أثبات وعناصر اشتقاقية. ونظرا للصعوبات العلمية المتصلة بهذا المعجم ونظرا لما طرحه من مشاكل إقتصادية، فإنه يستبعد زمنا طويلا أن يجدد مثل هذا العمل في فرنسا.

ولم نذكر هذه المعاجم الثلاثة إلا لمالها من قيمة وما نالته من إقبال. أما المعجمية الطبية التي مكثت زمنا متلكئة فإنها أنتجت عدة مؤلفات في العقدين الأخيرين. وإلى جانب معاجم أخرى تشمل مثل المعاجم السابقة عموم الطب، لكنها لم تلق نجاحا، أو لم يرتب فحواها التشخيصي الطبابي ترتيبا ألفبائيا، ألفت عدة معاجم مختصة بفرع واحد من فروع الطب.

ثم إن تدويل العرفان والعلاقات الطبية زاد في طلب المعاجم الطبية الثنائية، أو المتعددة اللغات. وكان أكثرها تشعبا معجم (كوستيش Kostich) بلفاته السبع وبمداخله البالغ عددها مائة وتسعة عشر ألف مدخل. وهذه المعاجم شانها شأن المعاجم الفرنسية تختلف جودة وحجما وهذان الوصفان قلما يجتمعان.

وتم تنظيم ثلاث ندوات في الاصطلاح الطبي، والمعجمية الطبية، من لدن «مجلس المنظمات الدولية للعلوم الطبية» (بباريس سنة 1956) ومن لدن «مجلس أوربا» (بأمستردام سنة 1967 وبالمجلس الدولي للغة الفرنسية (بباريس سنة 1974) وحددت تحديدا دقيقا ما ينبغي أن يسمى حسب فحواه ب «قاموس» (Dictiooaire) وما يسمى ب «معجم» (Lexipue) وما يسمى بـ «مستدرك» (Glossaire) وما يسمى ب «مسرد» (répertoire). وذكرت هذه الندوات بما يجب ان يكون عليه النظام العام للكتاب، وهندامه الطباعي، واختياره للابواب، وإحالاته كما وكيفا وهي بذلك وضعت منهجية حقيقية للمعجم.

إن الحالة الراهنة للغة مهنة الطب تحدث صعوبات كبيرة للمخابرة والتقدم وهذا شيء يتحسر عليه الكثير: «اللغة الطبية صنعت الجديد بالفاظ لم تعد مواتية، بالفاظ رديئة الصياغة، تكونت من مفاهيم جزافية مبتسرة. فطب اليوم له اللغة التي يستحقها». هذا ما كتبه (همبرجي Hamburger) في مقدمة معجمه.

ولذلك امتازت العشرون سنة الاخيرة بجهود متنوعة لعلاج داء اللغة الطبية. فقبل كل شيء، انشئت داخل كل دولة لجان التدوين من اجل التبسيط والتنسيق. ففي فرنسا شاهدنا جمعيات للعلماء تخصص اجتماعات للنظر في اصطلاحها. وكذلك شأن علماء التبنيج، واطباء القلب، والجراحة التطبيقية، واطباء الدم. وعلى المستوى الدولي المشورة أصعب لكنها غير مستحيلة. فمنذ سنة 1895 جرت بين علماء التشريح مناقشة مدونتهم، وبعد مراجعات عديدة توصلوا في سنة 1955 الى وضع «مدونة باريس» التي فرضت وجودها على الجميع (Parisiena Nomina Anatomica, P.N.A).

فنشرت موجزات، ودلائل لكتابة، مخصصة لأطباء اللغة الأنجليزية، أو الفرنسية، من أجل كتابة نصوصهم بكيفية واضحة، وبسيطة، ومفهومة، ولكي يقدموها بكيفية متسقة في كل المجلات

العلمية التي لجان تحريرها وعت واجباتها. وأعدت موجزات لأصول إشتقاق المصطلحات الطبية (مثل موجزات سكنير Skinner وروبير Roberts وشوفاليي Chevalier) كان لها هدف مزدوج: الهدف الأول هو تذكير الطارئين الجدد على عالم الطب بمعاني الصدور الاشتقاقية، والجذور أو الكواسع اللاتينية أو الإغريقية. وهي مهمة ضرورية، لاسيما وأن الأطباء الناشئين لم يتعلموا هاتين اللغتين ويجهلون حتى الألفبائية الإغريقية. والهدف الثاني هو تيسير توليد ألفاظ المصطلحات.

وعملا على سد الطريق على الدخيل، وعلى الردىء الصياغة، وعلى الترادف الكثير المفرط، نشأت عدة هيآت بفرنسا تختلف طبائعها وطرائق عملها. وفي سنة 1963 تأسست لجنة لدراسة المصطلحات الطبية الفرنسية بإسم «Clair-Dire» (قل بوضوح نشرت عدة قوائم للألفاظ الفرنسية المقابلة للمقترضات الأجنبية. فما كان من أكاديمية الطب الوطنية إلا أن أنعشت لجنتها الدائمة الخاصة باللغة الطبية، وتبعها في ذلك فرع الطب في أكاديمية العلوم.

ورغبة في توطيد اللغة الفرنسية وتنميتها فيما وراء العالم الناطق بالفرنسية عمدت الحكومة الفرنسية - في نفس الوقت الذي أنشئت فيه «اللجنة العليا للغة الفرنسية» و«المجلس الدولي للغة الفرنسية» - إلى الطلب من كل وزارة أن تنشىء لجنة للإصطلاح. ثم إن وزارة الصحة بعد أعمال لجنتها الخاصة نشرت في سنة 1975 وفي سنة 1979 قرارين مصحوبين بمنشور يفرضان ويوصيان باستعمال بعض المصطلحات في جميع الوثائق العمومية والنصوص القانونية والكتب الدراسية والأسواق العمومية ويمنعان إستعمال مصطلحات أخرى. وفي «كيبيك» (Quebec) نشر «مكتب اللغة الفرنسية» مستدركا للمصطلحات الطبية.

وتنشر «منظمة الصحة العالمية» على فترات منتظمة «قوائم التسميات المشتركة الدولية للمستحضرات الصيدلانية» (وهذا ميدان لم نرد التطرق إليه)، بيد أنها إقترحت كذلك إقرار عدد من التحديدات الدلالية الممكن قبولها لشتى مصطلحات الطب والصحة العمومية.